

دعوة ابن تومرت

قامت الدولة الموحدية على أساس مذهبي قوي أساسه الدعوة التي أنشأها المهدي بن تومرت والمرتكزة على التوحيد كعنصر محوري. وقد نجح ابن تومرت بعد تحصيل علمي قوي في جمع القبائل المصمودية في تنظيمات اجتماعية وسياسية ساعدته في تربيتها وإعدادها لمشروعه السياسي المتمثل في خلق دولة على أنقاض دولة المرابطين.

1- من هو ابن تومرت؟

اسمه محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الملقب بأسافو (المشعل) ويلقب بأبي عبد الله والمهدي والإمام المعصوم تبعاً لمراحل حياته وتطور دعوته السياسية. وينتسب إلى قبيلة هرغة المصمودية وذهب البعض إلى أنه من سلالة النبي وهو أمر اختلف فيه المؤرخون كثيراً بين مرجح ورافض. وهو من أسرة تشتهر بالنسك والعبادة، وكان أبوه على ما يبدو من اسم أمغار الذي يحمله شيخا لقبيلته، ويلقب بتومرت. وله ثلاثة إخوة هم عيسى وعبد العزيز وأحمد الكفيف وأخت مقربة جدا منه تسمى زينب.

اختلف حول تاريخ ولادته حيث تركزت الروايات بين 469 و 491هـ وبناء على تاريخ وفاته وعمره آنذاك (524هـ 50 أو 55 سنة) يمكن حصر ولادته ما بين 469 م و 474هـ، ورجح عبد المجيد النجار عام 473هـ. وقد ولد ببلد أرغن على السفوح الجنوبية للأطلس الكبير الأوسط بالرغم من أن بعض الروايات تجعله في السوس.

قضى طفولته الأولى وبداية شبابه في بلده، ويبدو أنه استغلها لحفظ القرآن و تحصيل بعض المعلومات الشرعية واللغوية فأظهر نبوغاً أعطاه لقب أسافو. وبعدها رحل إلى المشرق لطلب العلم إما عام 499 أو 500هـ. ولنا نملك معلومات حول خط رحلته، لكن تحريات الباحثين قدمت مسارا على الشكل التالي:

إيجلي نوارغن ← مراکش ← فاس ← قرطبة ← المهدية ← الإسكندرية
مكة ← الشام ← العراق.

وقد قضى في المشرق عشر سنوات لا نملك كثيرا من التفاصيل عنها، لكن ما ورد عن بغداد دون غيرها يجعلنا نعتقد أنه جعلها وجهته الرئيسية والمفضلة ومصدر علمه وطلبه. ولا يمنع ذلك من كونه قام برحلات قصيرة إلى بعض مدن العراق وفارس. ولنا تعطينا مصادرنا إلا معلومات عامة حول شيوخه الذين احتفظ بأسماء بعضهم مثل: أبو حامد الغزالي والكياء الهراسي والمبارك بن عبد الجبار وأبو بكر الشاشي وأبو بكر الطرطوشي وأبو عبد الله محمد بن منصور الحضرمي.

وعاد إلى المغرب "بحرا متفجرا من العلم، وشهابا واريا من الدين" كما قال ابن خلدون، وصاحب فكر ومبدأ شرع في تبليغه منذ بدأ رحلة العودة التي انطلقت من مكة مرورا بالإسكندرية والمهدية وبجاية وتلمسان وفاس ومكناس وسلا ومراكش. لقد كان يعلم ويرشد ويعظ ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر واصطدم مع سلطات هذه المدن وعامتها أكثر من مرة وتعرض للطرد وكاد أحيانا يقتل، لكنه كان يصر على مواصلة عمله، وكان في كل مرة يفلت وكأن الرعاية الإلهية كانت تدخره للقيام بمهمته التي تجند لها. ولما خرج من مراکش هاربا من حاشية علي بن يوسف ووصل أغمات كان قد قرر مستقبل عمله.

2- مذهب ابن تومرت وتنظيم أتباعه

كان لابن تومرت تكوين علمي متين ارتكز على ثقافة يطبعها الجدل والتأصيل والتعاطي مع فروع علمية لم تكن رائجة بقوة في المغرب خاصة أصول الفقه والحديث وعلم الكلام والاختلافات المذهبية، وزادتها قوة قدرته العالية على التأصيل واستحضار نصوص القرآن والسنة. وهذا التكوين والمنهج مكناه من التغلب على كل من ناظروه سواء في بجاية أو فاس أو مراکش وقرب إليه الأتباع وأكسبه تعاطف الزعماء وحماه من بطشهم.

ويقوم نهج ومذهب ابن تومرت على مجموعة من العناصر أهمها:

*الاعتماد على الكتاب والسنة لفهم الدين

*التركيز على توحيد الله وتنزيهه عن كل تشبيه له وتجسيم كما يفعل

المرابطون الذين سماهم بالمجسمة. (أعز ما يطلب، ص.223)

لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ الْمَوْجُودَاتُ، وَشَهِدَتْ عَلَيْهِ الْمَخْلُوقَاتُ، بِأَنَّهُ جَلٌّ وَعَلَاءٌ، وَجَبَ لَهُ الْوُجُودُ عَلَى الْإِطْلَاقِ مِنْ غَيْرِ تَقْيِيدٍ وَلَا تَخْصِصٍ بِزَمَانٍ، وَلَا مَكَانٍ، وَلَا جِهَةٍ، وَلَا أَحَدٍ وَلَا جِنْسٍ، وَلَا صُورَةَ، وَلَا شَكْلٍ، وَلَا مَقْدَارٍ، وَلَا هَيْئَةٍ، وَلَا حَالٍ. أَوَّلُ لَا يَتَّقِيْدُ بِالْقَبْلِيَّةِ، آخِرُ لَا يَتَّقِيْدُ بِالْبَعْدِيَّةِ، أَحَدٌ لَا يَتَّقِيْدُ بِالْأَيْنِيَّةِ، صَمَدٌ لَا يَتَّقِيْدُ بِالْكَيْفِيَّةِ، عَزِيزٌ لَا يَتَّقِيْدُ بِالْمَثَلِيَّةِ، لَا تَحُدُّهُ الْأَذْهَانُ، وَلَا تُصَوِّرُهُ الْأَوْهَامُ، وَلَا تُلْحِقُهُ الْأَفْكَارُ، وَلَا تُكَيِّفُهُ الْعُقُولُ، لَا يَتَّصِفُ بِالتَّحْيِيزِ وَالتَّنْقَالِ، وَلَا يَتَّصِفُ بِالتَّغْيِيرِ وَالتَّزْوَالِ، وَلَا يَتَّصِفُ بِالْجَهْلِ وَالتَّضْطَرَارِ، وَلَا يَتَّصِفُ بِالتَّعْجِزِ وَالتَّافِتْقَارِ، لَهُ الْعِظَمَةُ وَالتَّجَلُّلُ، وَكَهْ الْعِزَّةُ وَالتَّكَمُّالُ، وَكَهْ الْعِلْمُ وَالتَّاخْتِيَارُ، وَكَهْ الْمَلِكُ وَالتَّقْدَارُ، وَكَهْ الْحَيَاةُ وَالتَّبْقَاءُ، وَكَهْ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى، وَاحِدٌ فِي أَرْكَانِهِ، لَيْسَ مَعَهُ شَيْءٌ غَيْرُهُ، وَلَا مَوْجُودٌ سِوَاهُ، لَا أَرْضٌ وَلَا سَمَاءٌ، وَلَا مَاءٌ وَلَا هَوَاءٌ، وَلَا خَلَاءٌ، وَلَا مَلَأٌ، وَلَا نُورٌ وَلَا ظَلَامٌ، وَلَا لَيْلٌ وَلَا نَهَارٌ، وَلَا أُنَيْسٌ وَلَا حَسِيْسٌ، وَلَا رِزٌّ وَلَا هَمِيْسٌ، إِلَّا الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ، انْفَرَدَ فِي الْأَزْلِ بِالْوَحْدَانِيَّةِ وَالتَّمَلِكِ وَالتَّأَلُوْهِيَّةِ، لَيْسَ مَعَهُ مُدَبِّرٌ فِي الْخَلْقِ، وَلَا شَرِيْكَ فِي الْمَلِكِ، لَهُ الْحُكْمُ وَالتَّقْضَاءُ، وَكَهْ الْحَمْدُ وَالتَّثْنَاءُ، لَا دَافِعَ لِمَا قَضَى، وَلَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَى، يَفْعَلُ فِي مَلِكِهِ مَا يُرِيْدُ، وَيَحْكُمُ فِي خَلْقِهِ مَا يَشَاءُ، لَا يَرْجُو ثَوَابًا وَلَا يَخَافُ عِقَابًا، لَيْسَ فَوْقَهُ أَمْرٌ قَاهِرٌ، وَلَا مَانِعٌ زَاجِرٌ، لَيْسَ عَلَيْهِ حَقٌّ، وَلَا عَلَيْهِ حُكْمٌ، فَكُلُّ نِعْمَةٍ مِنْهُ فَضْلٌ، وَكُلُّ نِقْمَةٍ مِنْهُ عَدْلٌ، لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ، وَهُمْ يُسْأَلُونَ.

(1) هذا النص غير مدرج في (أ).

*اعتماد فكرة المهدوية إذ اعتبر نفسه منذ 518هـ المهدي المنتظر

المعصوم الذي يأتي في آخر الزمان لينشر العدل ويزيل الظلم والجور. (عنان.

عصر المرابطين، ص.209)

وليس ذلك فقط ، فإن طاعة المهدي ، والاستسلام إليه ، إن هي إلا طاعة الله ورسوله ذاتها ، « فإن سنة المهدي هي سنة الله ورسوله ، وأمره أمر الله ورسوله ، وطاعته طاعة الله ورسوله ، والانقياد له الانقياد إلى الله ورسوله ، وموافقته موافقة الله ورسوله ، وتعظيم حرمانه تعظيم حرمان الله ورسوله . هو أعلمهم بالله ، وأقربهم إلى الله ، به قامت السموات والأرض ، وبه كشفت الظلمات ، وبه تدفع الأباطيل ، وبه تظهر المعارف ، وبموافقته تُنال السعادة ، وبطاعته تنال البركات» (١) .

*الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المبدأ الذي تمسك به منذ أن بدأ رحلة العودة من المشرق.

ولما استقر وسط أهله في إيجلي نوارغن؛ وكان قد اتخذ قراره بمواجهة المرابطين وإسقاط حكمهم الظالم منذ حلوله بأغمت واقتناعه برفضهم التغيير والاصلاح، بدأ في جمع الأتباع وأرسل أصحابه الذين جمعهم وكونهم في طريق عودته إلى القبائل يبثون أفكاره ويدعونهم إلى اتباع مهدي آخر الزمان. واعتمد في تكوين الأتباع على منهج تربوي يسهل تبليغ أفكاره باستخدام اللغة البربرية (اللسان الغربي) في التدريس والتأليف واعتماد طرق سهلة للحفظ والالزام بالمواظبة والحضور للتعلم والحفظ (الجزب) والصلاة، وكل تهاون يواجهه أولاً بالتعزير والضرب بالسياط وعند الاصرار بالقتل. وحاول تكسير الروابط الدموية وتعويضها بروابط الدين والمذهب فتشدد في عقاب كل من يداهن على قريبه كما أسند عقوبة المخالفين إلى قراباتهم. وحتى يضمن تماسك جماعته آخى بين أتباعه من غير المصامدة وأبناء قبائل مصمودية فألحقهم بها، وحتى يصفى جماعته من الضعاف والخونة والمترددین لجأ إلى الميز (استعراض الموحدين وفرزهم حسب الصدق للجماعة الجديدة - الونشريسي- مرتان) فقتل اعدادا كثيرة من المشككين والمعارضين، بل إنه قتل أهل تينمل لمعارضتهم لمشروعه. وحتى يضبط أتباعه اعتمد على تنظيم دقيق قسم بموجبه أتباعه إلى طبقات أهمها: (معيار السبق والدور في الدعوة)

*أهل العشرة: أقرب أصحابه إليه وأهل مشورته الأساسيين منهم البشير
وعبد المومن.

*أهل الخمسين وأهل السبعين

*طلبة العلم

*الحفاظ

*أهل الدار

*أهل قبيلة هرغة

* " " تينمل

* " " جدميوة

* " " جنفيسة

* " " هنتاتة

*الجند

*الغزاة والرماة

*عبيد المخزن

وستضاف إليها طبقات أخرى فيما بعد. ولكل طبقة مهمة ومرتبة محددة لا تتجاوزها في لا السفر ولا في الحضر، كما أنها مفتوحة لالتحاق عناصر جديدة. وبهذه الجماعة المتماسكة والمتحمسة بدأ حربه مع المرابطين.

3- مواجهة المرابطين وبداية الدولة الموحدية

بدأت الحملة على المرابطين كأعداء سياسيين؛ على ما يرجح، في مدينة أغمات عندما اقتنع أنهم غير مستعدين للإصلاح والتغيير إثر المقاومة التي أبدوها لأفكاره ونصائحه ومحاولتهم الفتك به. فأعلن هناك أنهم فاسدون وأوجب

ضرورة تغييرهم بجماعة أحسن منهم، فكان كما يرجح لا يمر بقبيلة في طريقه إلى إيجلي نوارغن إلا ودعاها لذلك وانتدبها لليوم الموعد.

توجه نقد المهدي للمرابطين نحو إظهار عيوبهم بكل الوسائل والعبارات المتوفرة، فهم الجماعة التي ضيعت الإسلام حتى صار غريباً وفي عهدها ستظهر الجماعة التي ستعيده إلى سابق عهده بزعامة مهدي آخر الزمان الذي تنطبق كل صفاته عليه. وهم مجسمون جاهلون وناكرون للتوحيد وظالمون جائرون يستحلون أموال الناس بالباطل ويأكلون أموال اليتامى والأرامل ويحكمون بالجور والظلم ويحيدون عن الحق وهم متبرجون (لقب حشم) عراة وحفاة مكثرون من العمران والترف مما يؤذن بنهب دولتهم. وهم كاذبون مفترون. وظل يردد هذه الانتقادات في كل المناسبات والمحافل حتى اقتنع بها هو قبل أتباعه.

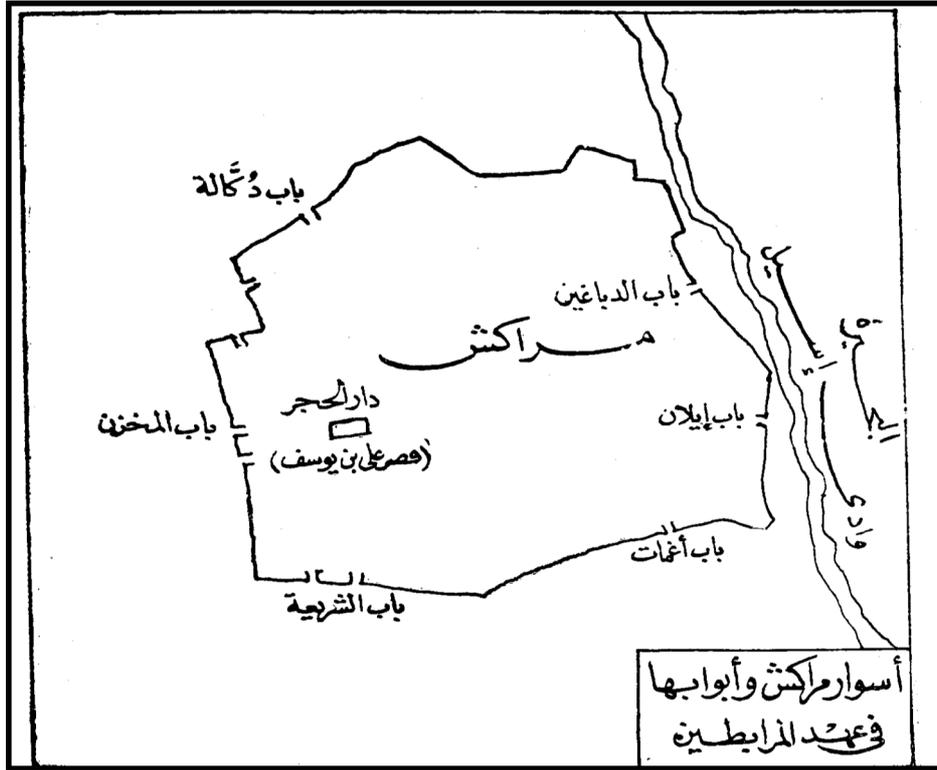
لما ذاع صيت المهدي وكثر أتباعه أحس علي بن يوسف بخطرته فبدأ يرسل إليه غزوات للقبض عليه (عامل سوس - أبو إبراهيم إسحاق - سير بن مزدلي وغيرهم) بلغ عددها ما بين 516 و 518هـ تسع غزوات كانت كلها للموحدين غير اثنتين (هسكورة - أنسا). وكان المهدي يواجه في نفس الوقت المرابطين والقبائل المصمودية التي رفضت الانضمام إليه وحالفت المرابطين مثل هسكورة. ويبدو أن هذا الوضع انتهى مع مطلع عام 518هـ عندما استقر في تينمل (بلد هزميرة) كعاصمة له وسط القبائل المصمودية، وامتد نفوذه على جبال الأطلس الكبير والسوس.

انتقل بعد ذلك إلى الهجوم، فبدأ بتصفية صفوفه من خلال عملية التمييز التي قادها أبو محمد البشير وأودت بحياة آلاف من المشككين في عصمته وضعافي الولاء له. ووقعت مجموعة من المعارك يصعب ضبطها كلها. لكن المهدي فضل حتى هذا الوقت ترك مبادرة الهجوم للمرابطين والاستعانة بالجبل لهزمهم. وفي عام 520هـ أرسل حملة بقيادة البشير إلى ناحية أغمات وهزمت ثلاث جيوش مرابطية (أبو الطاهر تميم- يطي- أهل أغمات والنواحي) متتالية وطردهم حتى أسوار مدينة مراکش، ثم انسحب البشير إلى تينمل. وقرر علي بن يوسف بعدها

محاصرة الجبل بمجموعة من القلاع من إنشاء الفلاكي الأندلسي. وفي 524هـ، قرر المهدي تنظيم حملة ضخمة على مراكز أملا في إسقاط المرابطين. وشارك فيها البشير وعبد المومن، ونجح الموحدون في دفع المرابطين حتى أسوار مراكز الجنوبية عند باب الشريعة، وحاصروا المدينة لمدة أربعين يوما حصلت خلالها عدة معارك كان معظمها للموحدين. لكن المرابطين توصلوا بالدعم من النواحي وخرج المحاصرون ووقعت معركة البحيرة التي فني فيها جيش الموحدين (40000 رجلا)

ومن هؤلاء غير البشير ، اربعة من اصحاب المهدي العشرة ، هم سليمان بن مخلوف الحضرمي ، وأبو عمران موسى بن تماري الكدميوي ، وأبو يحيى بن يكييت ، وأبو عبد الله محمد بن سليمان . ومما هو جدير بالذكر أن البشير لم يعثر له بأثر ، ولم توجد جثته ، فذاع بين المتعصبين من المصامدة أنه رفع إلى السماء⁽¹⁾ . ولكن الحقيقة (عنان عصر المرابطين، ص.189، والخريطة، ص.187).

ولم ينج منهم إلا 400 رجل منهم عبد المؤمن، وهو الحدث الذي علق عليه المهدي بأن لنا أحد فقد ما دام عبد المؤمن حيا. وبعدها بقليل مات المهدي بن تومرت وبايع أصحابه عبد المؤمن سرا ليوصل عمل شيخه.



خاتمة

لقد نجح ابن تومرت في تكوين دولة صغيرة على الأطلس الكبير الأوسط والسوس وجرب مواجهة المرابطين، مما أعطى الثقة للأتباع للاستمرار تحت قيادة خليفته، وتكوين الإمبراطورية الموحدية.

./.